الطفولتان

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

عِصمت ابنُ فلان باشا طفلٌ مُترَف يكادُ ينعصرُ ليناً ، وتراه يَرِفُّ رفيفاً مما نشأ فى ظلال العزّ ، كأن لروحه من الرقّة مثلَ ظلّ الشجرة حول الشجرة . وهو بين لِداته من الصِّبيان كالشَّوكة الخضراء فى أُملودها الريان ، لها منظرُ الشوكة على مَجسَّةٍ ليّنةٍ ناعمةٍ تُكذّب أنها شوكةٌ إلا أن تَيْبَسَ وتَتَوقّح

وأبوه « فلان باشا » مديرٌ لمديرية كذا ، إذا سُئل عنه ابنُه قال : إنه مدير المديرية . لا يكاد يعدو هذا التركيب ، كأنه من غُرور النعمة يأبى إلا أن يجعلَ أباه مديراً مرّتين . . . . وكثيراً ما تكون النعمةُ بذيئةً وقاحاً سيّئةَ الأدب فى أولاد الأغنياء ، وكثيراً مايكون الغنى فى أهله غِنًى من السيئات لاغير !

وفى رأى عصمت أن أباه من عُلوّ المنزلة كأنه على جناح النّسر الطائر فى مَسْبَحه إلى النجم ، أما آباءُ الأطفال من الناس فهم عنده من سقوط المنزلة على أجنحة الذباب والبعوض !

ولا يغدو ابنُ المدير إلى مدرسته ولا يَتروّحُ منها إلا وراءه جُنديٌّ يمشى على أثره فى الغدْوة والرَّوْحة إذ كان ابن المدير ، أى ابنَ القوّة الحاكمة ، فيكون هذا الجنديُّ وراء هـذا الطفل كالمنبِّهة له عند الناس ، تُفصحُ شارتُه العسكريةُ بلغات السابلة جمعاءَ أن هـذا هو ابن المدير . فاذا رآه العربىّ أو اليونانىُّ ، أو الطليانىُّ أو الفرنسىُّ ، أو الانجليزىُّ أوكائنٌ مَن كان من أهل الألسنة المتنافرة التى لا يَفهمُ لسانٌ منها عن لسان ــ فهموا جميعاً من لغة هذه الشارة أن هذا هو ابنُ المدير ؛ وأنه من الجندىّ الذى يَتبعُه كالمادة من القانون وراءها الشرح ... !

ولقد كان يجب لابن المدير هذا الشرفُ الصِّبيانىّ . لو أنه يوم وُلِد لم يولد ابنَ ساعته كأطفال الناس ، بل وُلِد ابنَ عشر سنين كاملةٍ لتشهدَ له الطبيعةُ أنه كبيرٌ قد انصدعت به معجزة ! وإلا فكيف يمشى الجنديُّ من جنود الدولة وراء طفل فيتبعُه ويخدُمه ويَنْصاعُ لأمره ؛ وهذا الجندىُّ لو كان طريدَ هزيمةٍ قد فرَّ فى معركةٍ من معارك الوطن ، وأُريدَ تخليدُه فى هزيمته وتخليدُها عليه بالتصوير ــ لما صُوِّرَ إلا جندياً فى شارته العسكرية منقاداً لمثل هــذا الطفل الصغير كالخادم ؛ فى صورة يُكتَب تحتها : « نُفَاية عسكريّة ! »

* * *

ليس لهذا المنظر الكثير حدوثه فى مصر إلا تأويلٌ واحد : هو أن مكان الشخصيات فوق المعانى وإن صَغُرتْ تلك وجلّت هذه ؛ ومن هنا يكذبُ الرجلُ ذو المنصب ، فيُرفعُ شخصُه فوق الفضائل كلها ؛ فيتكبّرُ عن أن يكذبَ ، فيكونَ كذبُه هو الصدق ، فلا يُنكَر عليه كذبُه أى صِدقُه ...! ويخرج من ذلك أن يتقررَ فى الأمة أن كذبَ القوّة صِدقٌ بالقوّة !

وعلى هذه القاعدة يُقاسُ غيرها من كل ما يُخذَل فيه الحق . ومتى كانت الشخصياتُ فوق المعانى السامية طفقت هذه المعانى تموجُ مَوْجها محاولةً أن تعلو ، مُكرَهةً على أن تنزل ؛ فلا تستقيم على جهةٍ ولا تنتظمُ على طريقة ؛ وتُقبِلُ بالشىء على موضعه ، ثم تَكُرُّ كرّها فتُدبِرُ به إلى غير موضعه ، فتضلّ كل طبقةٍ من الأمة بكُبرائها ، ولا تكون الأمةُ على هذه الحالة فى كل طبقاتها إلا صِغاراً فوقهم كبارُهم ؛ وتلك هى تهيئةُ الأمة للاستعباد متى ابتُليتْ بالذى هو أكبر من كبارها ؛ ومن تلك تنشأ فى الأمة طبيعةُ النفاق يحتمى به الصَّغيرُ من الكبير ، وتنتظم به أُلفةُ الحياة بين الذلّة والصَّولة !

* * *

وتخلّفَ الجندى ذات يوم عن موعد الرَّواح من المدرسة ، فخرج عصمت فلم يجده ، فبدا له أن يتسكّع فى بعض طرق المدينة لينطلقَ فيه ابنُ آدم لا ابن المدير ، وحنّ حنينَه الى المغامرة فى الطبيعة ، ولبسَت الطرق فى خياله الصغير زينتَها الشعرية بأطفال الأزقة يلعبون ويَتهوّشون ويَتعابثون ويتشاحنون ، وهم شتّى وكأنهم أبناء بيتٍ واحد مسّت بكلٍّ من كل رحِم ، إذ لا ينتسبون فى اللهو إلا إلى الطفولة وحدها

وانساق عصمت وراء خياله ، وهرَب على وجهه من تلك الصورة التى يمشى فيها الجندىّ وراء ابن المدير ، وتغلغلَ فى

فى الأزقة لا يبالى ما يعرفه منها وما لا يعرفه ، إذ كان يسير فى طرق جديدة على عينه كأنما يحلم بها فى مدينة من مدن النوم.

وانتهى الى كبكبة من الأطفال قد استجمعوا لشأنهم الصبيانى ، فانتبذ ناحية ووقف يصغى اليهم متهيباً أن يقدم ، فاتصل بسمعه ونظره كالجان ، وتسمّع فاذا خبيث منهم يعلّم الآخر كيف يضرب إذا اعتدى أو اعتُدى عليه ، فيقول له : إضرب أينما ضربت ، من رأسه ، من وجهه ، من الحلقوم ، من مراق البطن ؛ قال الآخر : وإذا مات ؟ فقال الخبيث : وإذا مات فلا تقل إنى أنا علّمتك . . . !

وسمع طفلاً يقول لصاحبه : أما قلت لك إنه تعلّم السرقة من رؤيته اللصوص فى السيما ؟ فأجابه صاحبه : وهل قال له أولئك اللصوص الذين فى السيما كن لصّاً واعمل مثلنا ؟

وقام منهم شيطان فقال : يا أولاد البلد ، أنا المدير ! تعالوا وقولوا لى « يا سعادة الباشا ، إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس ، ولكننا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات . . » فقال الأولاد فى صوت واحد : « يا سعادة الباشا ، إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس ، ولكنا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات » فردّ عليهم (سعادته) : اشتروا لأولادكم أحذية وطرابيش وثياباً نظيفة ، وأنا أدفع لهم المصروفات

فنظر اليه خبيث منهم وقال : ياسعادة المدير ، وأنت فلماذا لم يشتر لك أبوك حذاء . . . ؟

وقال طفل صغير : أنا ابنك يا سعادة المدير ، فأرسلنى الى المدرسة وقت الظهر فقط . . . !

* * *

وكان عصمت يسمع ونفسه تهتزّ وترفّ بأحساسها كالورقة الخضراء عليها طلّ الندى ، وأخذ قلبه يتفتّح فى شعاع الكلام كالزهرة فى الشمس ؛ وسكر بما يسكر به الأطفال حين تقدم لهم الطبيعة مكان اللهو معدّاً مهيّأ كالحانة ليس فيها إلا أسباب السكر والنشوة ، وتمام لذتها أن الزمن فيها منسيّ ، وأن العقل فيها مهمل . . .

وأحسّ ابن المدير أن هذه الطبيعة حين ينطلق فيها جماعة الأطفال على سجيتهم وسجيتها ـ إنما هى المدرسة التى لا جدران لها ، وهى تربية الوجود للطفل تربية تتناوله من أدق أعصابه فتبدّد قواه ثم تجمعها له أقوى ما كانت ، وتفرغه منها ثم تملؤه ، هو أتمّ وأزيد . وبذلك تكسبه نموّ نشاطه ، وتعلّمه كيف ينبعث لتحقيق هذا النشاط ، فتهديه إلى أن يبدع بنفسه ولا ينتظر من يبدع له ، وتجعل خطاه دائماً وراء أشياء جديدة فتسدّده من هذا كله الى سر الابداع والابتكار ، وتلقّيه العلم الأعظم فى هذه الحياة ، علم نضرة نفسه وسرورها ومرحها ، وتطبعه على المزاج المتطلّق المتهلّل المتفائل ، وتتدفّق به على دنياه كالفيضان فى النهر ، تفور الحياة فيه وتفور به ؛ لا كأطفال المدارس الخامدين ، تعرف للواحد منهم شكل الطفل وليس له وجوده ولا عالمه ، فيكون المسكين فى الحياة ولا يجدها ، ثم تراه طفلاً صغيراً وقد جمعوا له هموم رجل كامل !

ودبّت روح الأرض دبيبها فى عصمت ، وأوحت إلى قلبه بأسرارها ، فأدرك من شعوره أن هؤلاء الأغمار الأغبياء من أولاد الفقراء والمساكين ، هم السعداء بطفولتهم . وأنه هو وأمثاله هم الفقراء والمساكين فى الطفولة ؛ وأن ذلك الجندى الذى يمشى وراءه لتعظيمه إنما هو سجن ، وأن الألعاب خير من العلوم ، إذ كانت هى طفلية الطفل فى وقتها ، أما العلوم فرجولة ملزّقة به قبل وقتها توقّره وتحوّله عن طباعه ، فتقتل فيه الطفولة وتهدم أساس الرجولة ، فينشأ بين ذلك لا إلى هذه ولا إلى هذه ، ويكون فى الأول طفلاً رجلاً ، ثم يكون فى الآخر رجلاً طفلاً

وأحسّ مما رأى وسمع أن مدرسة الطفل يجب أن تكون هى بيته الواسع الذى لا يتحرّج أن يصرخ فيه صراخه الطبيعى ، ويتحرك حركته الطبيعية ، ولا يكون فيه مدرسون ولا طلبة ، ولا حاملو العصىّ من الضباط ؛ بل حقّ البيت الواسع أن تكون فيه الأبوّة الواسعة ، والأخوّة التى تنفسح للمئات ؛ فيمرّ الطفل المتعلم فى نشأته من منزل إلى منزل الى منزل ، على تدريج فى التوسّع شيئاً فشيئاً ، من البيت الى المدرسة الى العالم

* * *

وكان عصمت يحلم بهذه الأحلام الفلسفية ، وطفولته تشبّ وتسترجل ، ورخاوته تشتدّ وتتماسك ؛ وكانت حركات

الأطفال كأنها تحرّكه من داخله ، فهو منهم كالطفل فى السيما حين يشهد المتلاكمين والمتصارعين ، يستطيره الفرح ، ويتوثب فيه الطفل الطبيعى بمرحه وعنفوانه ، وتتقلص عضلاته ، ويتكشف جلده ، وتجتمع قوته ؛ حتى كأنه سيظاهر أحد الخصمين ويلكم الآخر فيكوّره ويصرعه ، ويفضّ معركة الضرب الحديدىّ بضربته الليّنة الحريرية . . . !

فما لبث صاحبنا الغرير الناعم أن تخشّن ، وما كذّب أن اقتحم ، وكأنما أقبل على روحه الشارع والأطفال ولهوهم وعبثهم ، إقبال الجوّ على الطير الحبيس المعلّق فى مسمار ، إذا انفرج عنه القفص ، وإقبال الغابة على الوحش القنيص إذا وثب وثبة الحياة فطار بها ، وإقبال الفلاة على الظبى الأسير إذا ناوص فأفلت من الحبالة

وتقدم فادّغم فى الجماعة وقال لهم : أنا ابن المدير . فنظروا اليه جميعاً ثم نظر بعضهم الى بعض ، وسفرت أفكارهم الصغيرة بين أعينهم ، وقال منهم قائل : إن حذاءه وثيابه وطربوشه كلها تقول إن أباه المدير

فقال آخر : ووجهه يقول إن أمه امرأة المدير !

فقال الثالث : ليست كأمك يابسطيطى ولا كأم جعلص !

قال الرابع : يا ويلك لو سمع جعلص ، فان لكمته حينئذ لاتترك أمك تعرف وجهك من القفا !

قال الخامس : ومن جعلص هذا ؟ فليأت لأريكم كيف أصارعه ، فأجتذبه ، فأعصره بين يدىّ ، فأعتقل رجله برجلى ، فأدفعه ، فيتخاذل ، فأعركه ، فيخرّ على وجهه ؛ فأسمره فى الأرض بمسمار !

فقال السادس : هاها ! إنك تصف بأدق الوصف مايفعله جعلص لو تناولك فى يده . . . !

فصاح السابع : ويلكم ! ها هوذا . جعلص ، جعلص ، جعلص !

فتطاير الباقون يميناً وشمالاً كالورق الجاف تحت الشجر إذا ضربته الريح العاصف . وقهقه الصبى من ورائهم فثابوا الى أنفسهم وتراجعوا . وقال المستطيل منهم : أما إنى كنت أريد أن يعدو جعلص ورائى ، فأستطرد اليه قليلاً أطمعه فى نفسى ، ثم أرتدّ عليه فآخذه كما فعل « ماشيست الجبار [1] » فى ذلك المنظر الذى شاهدناه

وقهقه الصبيان جميعاً . . . . ! ثم أحاطوا بعصمت إحاطة العشّاق بمعشوقة جميلة ، يحاول كلٌّ منهم أن يكون المقرّب المخصوص بالحظوة ، لا من أجل أنه ابن المدير فحسب ، ولكن من أجل أن ابن المدير تكون معه القروش . . . فلو وجدت هذه القروش مع ابن زبال لما منعه نسبه أن يكون أمير الساعة بينهم الى أن تنفد قروشه فيعود ابن زبال . . . !

وتنافسوا فى عصمت وملاعبته والاختصاص به ، فلو جاء المدير نفسه يلعب مع آبائهم ويركبهم ويركبونه ، وهم بين نجار وحداد ، وبنّاء وحمّال ، وحوذىّ وطباخ ، وأمثالهم من ذوى المهنة والمكسبة الضئيلة — لكانت مطامع هؤلاء الأطفال فى ابن المدير ، أكبر من مطامع الآباء فى المدير

وجرت المنافسة بينهم مجراها ، فانقلبت الى ملاحاة ، ورجعت هذه الملاحاة الى مشاحنة ، وعاد ابن المدير هدفاً للجميع يدافعون عنه وكأنما يعتدون عليه ، إذ لا يقصد أحدٌ منهم أحدا بالغيظ إلا تعمدَ غيظ حبيبه ليكون أنكأ له وأشدّ عليه !

وتظاهروا بعضهم على بعض ، ونشأت بينهم الطوائل ، وأفسدهم هذا الغنى المتمثل بينهم — وياما أعجب إدراك الطفولة وإلهامها ! فقد اجتمعت نفوسهم على رأى واحد . فتحولوا جميعاً الى سفاهة واحدة أحاطت بابن المدير ، تخاطره أحدهم فى اللعب فقمره ، فأبى إلا أن يعلو ظهره ويركبه ؛ وأبى عليه ابن المدير ودافعه ، يرى ذلك ثلماً فى شرفه ونسبه وسطوة أبيه ؛ فلم يكد يعتلّ بهذه العلة ويذكر أباه ليعرّفهم آباءهم . . . . حتى هاجت كبرياؤهم ، وثارت دفائنهم ، ورقصت شياطين رءوسهم ؛ وبذلك وضع الغنىّ حقد الفقر بازاء سخرية الغنى ؛ فألقى بينهم مسئلة المسائل الكبرى فى هذا العالم ، وطرحها للحل . . . . . !

وتنفّشوا للصّولة عليه ، فسخر منه أحدهم ، ثم هزأ به الآخر ، وأخرج الثالث لسانه ؛ وصدمه الرابع بمنكبه ؛ وأفحش عليه الخامس ؛ ولكزه السادس ؛ وحثا السابع فى وجهه التراب !

(١) بحار إيطالى كالمارد ؛ عريض الألواح ، وثيق التركيب ؛ يعجب الأطفال به أشد الإعجاب ، وإذا شهدوه فى السيما كاد تمثيله يشب بهؤلاء الأطفال الى سن الرجولة فى ساعة واحدة

وجهَد المسكين أن يفرَّ من بينهم فكأنما أحاطوه بسبعة جدران فبطَل إقدامُه وإحجامُه ، ووقف بينهم كما كَتب الله . . . ! ثم أخذته أيديهم فانجدَل على الأرض ، فتجاذبوه يمرّغونه في التراب !

وهم كذلك إذ انقلب كبيرُهم على وجهه ، وانكفأ الذي يليه ، وأُزيحَ الثالث ، ولُطِمَ الرابع ؛ فنظروا ، فصاحوا جميعاً : « جُمْلُص ، جملص ! » وتواثبوا يشتدُّون هرباً . وقام عصمت ينتفضُ الترابُ من ثيابه وهو يبكي بدمعه وثيابه تبكي بترابها . . . ! ووقف ينظر هذا الذي كشفهم عنه وشرَّدهم صولتُه ، فاذا جملص وعليه رَجفانٌ من الغضب ، وقد تَبرْطمَتْ شفتُه وتقبّض وجهُه كما يكون « ماشيست » في معاركه حين يدفع عن الضعفاء

وهو طفل في العاشرة من لِدات عصمت ، غير أنه مُحتنِكٌ في سنّ رجل صغير ؛ غليظٌ عَبلٌ شديدُ الجِبْلةِ متراكبٌ بعضُه على بعض ، كأنه جِنّيٌ مُتقاصِرٌ يَهُمُّ أن يطولَ منه المارد . فأنِسَ به عصمت ، واطمأنّ إلى قوّته ، وأقبل يشكو له ويبكي !

قال جملص : ما اسمك ؟

قال : أنا ابن المدير . . . !

قال جملص : لا تَبْكِ يا ابن المدير . تعلّم أن تكون جلداً ، فان الضرب ليس بذُلٍّ ولا عار ، ولكن الدموع هي تجعله ذلاً وعاراً ؛ إن الدموعَ لَتجعلُ الرجلَ أنثى . نحن يا ابن المدير نعيش طول حياتنا إما في ضرب الفقر أو ضرب الناس ، هذا من هذا ؛ ولكنك غنيٌّ يا ابن المدير ، فأنت كالرغيف (الفينو) ضخمٌ مُنتفخٌ ولكنه يتكسر بلمْسة ، وحَشوُه مثلُ القطن !

ماذا نتعلم في المدرسة يا ابن المدير إذا لم تعلمك المدرسة أن تكون رجلاً يأكلُ من يريدُ أكله ؛ وماذا تعرف إذا لم تكن تعرف كيف تصبر على الشر يوم الشر ، وكيف تصبر للخير يوم الخير ، فتكون دائماً على الحالتين في خير ؟

قال عصمت : آه لو كان معي العسكري !

قال جملص : ويحك ؛ لو ضربوا عنزاً لما قالت : آه لو كان معي العسكري !

قال عصمت : فمن أين لك هذه القوة ؟

قال جملص : من أني أعتملُ بيديَّ فأنا أشتدّ ، وإذا جعتُ أكلتُ طعامي ؛ أما أنت فتسترخي ، فاذا جعتَ أكلك طعامُك ؛ ثم من أني ليس لي عسكري . . . !

قال عصمت : بل القوةُ من أنك لستَ مثلنا في المدرسة ؟

قال جملص : نعم ، فأنت يا ابن المدرسة كأنك طفلٌ من ورق وكرّاسات لا من لحم ، وكأن عظامَك من طباشير ! أنت يا ابن المدرسة هو أنتَ الذي سيكون بعد عشرين سنة ، ولا يعلم إلا الله كيف يكون ؛ وأما أنا ابنَ الحياة ، فأنا من الآن ، وعليَّ أن أكونَ « أنا » من الآن !

أنتَ . . .

* * *

وهنا أدركهما العسكريُّ المسخر لابن المدير ، وكان كالمجنون يطير على وجهه في الطرق يبحث عن عصمت ، لا حباً فيه ولكن خوفاً من أبيه . فما كاد يرى هذا العفرَ على أثوابه حتى رنت صفعتُه على وجه المسكين جملص

فصعّر هذا خده ، ورشقَ عصمت بنظره ، وانطلق يعدو عَدْوَ الظليم !

ياللعدالة ! كانت الصفعةُ على وجه ابن الفقير ، وكان الباكي منها ابنَ الغنيّ . . . !

* * *

وأنتم أيها الفقراء ، حسبكم البطولة ؛ فليس غِنى بَطَلِ الحرب في المال والنعيم ، ولكن بالجراح والمشقاتِ في جسمه وتاريخه ؟

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

مجموعات الرسالة

ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٣٥ قرشاً
ثمن مجموعة السنة الثانية (المجلد الأول والمجلد الثاني) ٧٠ قرشاً
وثمن كل مجلد من المجلدات الثلاثة خارج القطر ٥٠ قرشاً